

رفض ورفض

عزيز حلاج

دمشق، ١٢ شباط ٢٠٠٩

تبدأ قصة الخلق في الأديان من كلمة أو من فعل مبدع للإله الخالق أو من تقارب تلقائي لأثرية السماء بهيولة الماء أو غيرها من الأساطير المؤسسة التي ترجمتها طلاس العرافين أو الكتب السماوية أو الطواطم أو رسوم المعابد إلى مفردات تدخل المخيال الجماعي لمجتمعاتها .

وما زالت نقطة الخلق الأولى موضع تحير حتى في زمان اكتشاف المركبات الجزيئية للذرة .

الانفجار الكبير من أين جاء؟ الثواني الأولى لخلق الكون؟ ما هو شكل الكون وإلى أين يتوسع؟

هل هناك فراغ في العدم أم أن العدم يعني انعدام الفراغ أيضاً؟

الأسئلة تزداد تعقيداً كلما دخلنا إلى عالم الجزيئات .

ما الذي يحفز جزيئات الذرة لتقفز من مدار إلى آخر؟

قبلنا أن الطاقة والمادة هما وجهان لعملة واحدة، ولكننا عجزنا عن فهم الطفرات التي تحدث أحياناً والتي لا تتساوى فيها المادة والطاقة قبل القفزة وبعدها .

هذه الطفرات الصغيرة التي تشكل كل منها عملية خلق صغيرة من العدم رقد مستمر لعملية الخلق الكبرى .

هل بدأ الخلق من طفرة تلقائية من العدم؟

وماذا يحدث حين تكون الطفرة عكسية وينتهي الوجود إلى العدم؟

هل رفض الوجود حالة يمكن وصفها؟

هل للعدم شكل أو لون؟

«رفض أو رفض» جدال بين حالتين وليس بين لوحتين: حالة الوجود وحالة العدم .

وبين الحالتين طاقة خفية تكاد أن تتماهى وتتبض بوجود مادي، تختبئ بلون نريده أن يكون أسوداً ويرفض هو التعريف .

لا يمكن أن نسبغ على العدم لونا، لأنه بمجرد تعريفه لا يعود عدماً .

إنهما ليستا لوحتين تجريديتين بل هما تمثيل حريف لأسطورة الخلق حسب نظريات الفيزياء النووية .

ولكن مهلاً ماذا يريد ياسر من التمثيل الحريف لأسطورة حديثة؟

وهو الذي صمد وحيداً لسنوات محاولاً أن يخلصنا من عقدة أن اللوحة يجب أن ترسم شيئاً، أن تماهى حدثاً أو أن تمثل سرداً .

هل تراجع ياسر عن قفزته في الفراغ المجرد في محاولته الجريئة المجنونة كجذبة الدرويش للتوحد مع الله؟
حيث تخنفي الكلمات وينتهي الزمان ويتحول الوجود إلى إشراقات لون.

هل نهاية التجريد هي أن نعود إلى فعل إنسان الكهف الأول الذي جسد برسومه تمثيلاً حرفياً لمشاكله الوجودية؟
لقد انتهت الصوفية الأولى إلى طرق ومدارس وكرامات.

وانتهى الوجد إلى حالات من الطقوسية، وصار الصوفيون يدعون أن الوصول إلى الله لا بد له من تدريب ولا بد له من إتقان وتحكم.

في البوذية يُعتبر هذا التحكم بالعقل هدفاً بذاته، تصبح تقنية التأمل هي الغاية لا هم إن أوصلت بعد ذلك إلى الله أو العدم.

هل عمل ياسر هو نوع من التدريب التقني للنظر؟ هل تتحول جذبته الروحية إلى طقس هدفه الأول والأخير السيطرة على الوعي واللاوعي في نسق من التحكم الذاتي؟

من طرف آخر، فضلت قلة من الصوفية الهرب من الدنيا عبرها، واعتبروا أن اعتراف الناس بهم وتقديرهم لمساعدتهم ليس إلا نوع من الشرك.

وكيف يهرب المرء من أهل الدنيا وهم يلاحقونه في كل مكان، فاختروا أن ينفروا الناس من حولهم بالتواجد في أماكن الملامة، فيتفرق الناس من حولهم ويتفرغوا هم لعبادتهم.

هرب الملامتية من الدنيا بالغوص في انحطاطها، بالتماشي مع مادية الحياة بالتماثل الشكلي مع الدنيوية، رفض للمادية الدنيوية بالانغماس في روافدها.

إن عودة ياسر لعالم البشر المادي هي نوع من الملامتية.

تختبئ وراء ماديته المفرطة محاولة للالتفاف علينا لكي يصل من ورائنا إلى عالم يستطيع أن يتعرف فيه على آلية الخلق بينما نقف نحن محاولين فك رمزية التمثيل المباشر لأسطورة الخلق.

في الحالة القصوى تتحول التمثيلية إلى تجريد، وتكتمل دورة التجربة في عالمه.

بينما نحترق بين ماديته وتجريده، بين الوجود والعدم، يقترب الدرويش خطوة أخرى إلى هدفه، جذبة أخرى.